

## المسألة التربوية عند دوركايم

د.غنية ضيف

أستاذة محاضرة

قسم علم الاجتماع والديمغرافيا

جامعة الجزائر 2- أبو القاسم سعد الله

تناول دوركايم المسألة التربوية في إطار مشروعه السوسيولوجيا العام، و قد شكل هذا التناول البدايات الأولى للتنظير السوسيولوجي التربوي في فرنسا، و درس الظاهرة التربوية باعتبارها ظاهرة اجتماعية واقعية غير مثالية لذلك « حاول دوركايم أن يبني مشروعه السوسيولوجي التربوي بدءا من نقده لمختلف المفاهيم و التحديدات التي اتخذتها التربية عند الفلاسفة والمفكرين والمربين أمثال جون جاك روسو، وكانط هيغل، ونيتشه وستيوارت ميل، و جيمس ميل و غيرهم، تلك التحديدات التي أضفت على التربية صبغة مثالية كليانية ... دون ربطها بسياقات سوسيو تاريخية محددة»<sup>(1)</sup>

لذلك أعطى الأولوية لتدخل الإنسان على الإنسان في العملية التربوية كتأثير حيوي دون العوامل الأخرى، فستيوارت ميل مثلا أعطى للتربية مفهوم واسع جدا، فهي عنده « كل ما نفعله نحن بأنفسنا و يفعله الآخرون من أجلنا بغية تقربنا من كمال طبائنا...»<sup>(2)</sup>

فالتربية ليست كمال و تهذيب للطبائع فقط، و إنما هي تنمية لهذه القدرات والطبائع بما يتوافق وتكوين الفرد في المجتمع الذي يعيش فيه. كما خالف دوركايم في كتابه "التربية و علم الاجتماع" جيمس ميل "James Mill" في تعريفه لمفهوم التربية و الذي

(1) مصطفى محسن : الاتجاهات النظرية في سوسيولوجيا التربية، مجلة الدراسات النفسية و التربوية، عدد 12، ماي 1991، ص 46.

(2) Emile Durkheim: Education et sociologie, El Bouhane, Alger, 1991, p. 9.

يحددها بوصفها « العمل الذي يهدف إلى تحقيق سعادة الإنسان و سعادة الآخرين »<sup>(1)</sup>، فالسعادة شيء ذاتي و خاص بالإنسان و لهذه الإعتبارات رفض دوركايم هذه التعاريف الميثالية للتربية، لأن الفعل التربوي عنده ليس فعل ميثالي بل واقعي مستمد من أهداف نفس المجتمع الذي ينشأ فيه.

لذلك حاولت النظرية الدوركايمية تجاوز هذه التعاريف الكلاسيكية، التي غدت آنذاك عاجزة على تفسير الواقع التربوي الفرنسي.

السياق الاجتماعي للمشروع الدوركايمي.

صاغ دوركايم مشروعه الفكري و المعرفي في فترة التحولات الاجتماعية و السياسية الكبرى التي عرفتها فرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين.

و ارتبطت إنشغالاته بالسياق الاجتماعي و السياسي للجمهورية الفرنسية الثالثة التي تأسست سنة 1875 بعد صراعات عنيفة بين الملكيين و الجمهوريين. لقد ظلت الجمهورية الثالثة « متأرجحة إيديولوجيا و سياسيا بين اليمين و اليسار، بين الورثة الروحيين للنظام القديم، و بين أصحاب ميراث الثورة الفرنسية »<sup>(2)</sup>.

أما إقتصاديا فقد شهدت هذه المرحلة تقدم الإقتصاد الصناعي الذي إصطدم بوعي الطبقات العمالية التي تنظمت تحت تأثير الأطروحات الإشتراكية و الماركسية<sup>(3)</sup>، فنمت الحركة النقابية العمالية، كما تنامت الفردانية و تراجع الإرتباط بالكنيسة و فقد الدين و العادات فاعليتهم،

كما بلغ الإيمان بالتقدم ذروته في القرن التاسع عشر، عصر إزدهار العلم و الصناعة و التكنولوجيا بإمتياز الذي راح يحل محل الدين المسيحي و يصبح ديناً جديداً

Ibid, p. 10. (1)

(2) محمود عودة : تاريخ علم الاجتماع، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، ص 199.

(3) Jean Claude Fillaux : Emile Durkheim, In : Perspectives, Vol. 23, N° 1-2, 1993, p. 305.

بدوره ... و راح الجميع في أوروبا يعلقون الآمال على العلم و التقدم العلمي لحل مشاكل البشرية»<sup>(1)</sup>.

لقد حل العلم محل الدين، و الأخلاق المبنية على العلم محل العادات و الأخلاق ذات المرجعية الدينية، و تحللت السلطة الأخلاقية التقليدية.

كما شهد دوركايم الإصلاحات التي مست النظام التعليمي مع جول فيري "Jules Ferry" بعد « الصراع بين اليمين الديني و اليسار العلماني حول قضية التعليم »<sup>(2)</sup>، و الذي إنتهى بإعلان سلسلة من القوانين بين سنوات 1879 و 1889 حولت بعمق مسار النظام التعليمي في فرنسا، و أحدثت قطيعة مع النظام التعليمي القديم، « فقد زعزعت هذه القوانين المشهد التربوي بعمق في فرنسا »<sup>(3)</sup> و تمثلت هذه القوانين أساسا فيما يلي :

أ) قانون إنشاء المدارس العليا للإناث و الذكور من أجل تكوين أساتذة التعليم الإبتدائي صدر في التاسع من أوت سنة 1879.

ب) قانون مجانية التعليم الإبتدائي صدر في 16 جويلية 1881م.

ج) قانون علمنة التعليم و إجباريته بالنسبة للتلاميذ الذين يتراوح سنهم بين ست سنوات و ثلاث عشرة سنة الذي صدر في 28 مارس 1882.

لقد « حولت هذه القوانين الكبرى التي أصدرها جول فيري و التي أنشأت مجانية و إجبارية و لائكية التعليم الإبتدائي ظروف تدرس كل الأطفال في المدن كما في القرى »<sup>(4)</sup> و بذلك « فقدت السلطة الدينية حق مراقبة التعليم التي أقرها قانون فالو "Falloux" سنة 1850 »<sup>(5)</sup>.

(1) صالح هاشم: مدخل إلى التنوير الأوروبي، دار الطليعة، بيروت، 2007، ص 241.

(2) محمود عودة: مرجع سابق، ص 198.

(3) Eric Dubreucq: Une éducation républicaine: Marion, Buisson, Durkheim, Libraire philosophique j. Vrin, Paris, 2004, p. 8.

(4) Jean Combes: Histoire de l'école primaire élémentaire en France, PUF, Paris, 1997, p. 88.

(5) Eric Dubreucq: Op.Cit, p. 8.

إعتبر دور كايم هذه القوانين الجديدة بمثابة ثورة بيداغوجية كبرى « تمثلت هذه الثورة في وجود تربية عقلانية بمعنى تربية أخلاقية مستقلة عن أي دين »<sup>(1)</sup>. جعلت هذه التحولات التي أفرزها المجتمع الرأسمالي الناشئ دوركايم يتساءل عن الحلول التي يمكن أن يقدمها للأزمات الإجتماعية، و قد تفاعل مع معطيات هذا المجتمع الجديد و التي تمثلت أساسا في :

(أ) تطور الإقتصاد الصناعي، و ظهور ظاهرة تقسيم العمل الإجتماعي.  
(ب) تقدم العقلانية العلمية.

(ج) وجود أزمة إجتماعية و تراجع الأخلاق نتجت عن تفكك الروابط الإجتماعية التقليدية و تراجع القيم، و سقوط المؤسسات التقليدية.

لذلك قدم دوركايم نظرية تقسيم العمل الإجتماعي ليوضح أن التحولات التي جرت في فرنسا و في أوروبا عموما تعني الانتقال نحو مفهوم جديد و تطبيق جديد للحياة الإجتماعية، إنه إنتقال المجتمعات التقليدية إلى شكل المجتمعات الحديثة. و لذلك إنشغل المشروع الدوركايمي بالمسألة الأخلاقية.  
المسألة الأخلاقية.

شغلت المسألة الأخلاقية حيزا مهما في نظرية دوركايم بل شكلت جوهر هذه النظرية، و قاعدة أعماله النظرية العامة في "تقسيم العمل الاجتماعي" و "الانتحار" أو في تلك الخاصة بالنظرية التربوية، في "التطور البيداغوجي في فرنسا" و "التربية و علم الاجتماع" و "التربية الأخلاقية".

لذلك فإن تناوله لمسألة الأخلاق في الحقل التربوي هو امتداد طبيعي للتناول العام حيث لا تنفصل عن مقارنته التحليلية للمجتمع، هذا على المستوى المعرفي، أما واقعا فإن تأثير دوركايم مهم ليس باعتباره منظر للمدرسة الجمهورية فقط، و لكن لكونه

<sup>(1)</sup> *Gry Vincent: Le pédagogie et le politique : Réflexions sur quelques textes de Durkheim,*

In: Durkheim sociologie de l'éducation textes réunis par François

Cardiet Joëlle Plantier, Présentation de Paul de Gaudmar, L'harmattan,

Paris, 1993, p. 8.

مارس التعليم و « التزام طول مساره بتكوين معلمي و أساتذة الجمهورية»، و غرس في أجيال كاملة من المعلمين العلمانيين مبادئه في التربية الأخلاقية و الاجتماعية<sup>(1)</sup>. الأخلاق عنده ذات طبيعة اجتماعية محضة، و لها وجود موضوعي على اعتبار أن كل جماعة إنسانية تؤسس قواعد تحدد ماهو مسموحه وما هو محذور وتتجلى الظاهرة الأخلاقية في شكل قواعد تفرض نفسها على الأفراد .

و تكمن أهمية الأخلاق في مقارنة دوركاييم للظاهرة التربوية و للنظام التربوي في الوظيفة الاجتماعية التي تقوم بها، و المتمثلة في تحقيق الاندماج الاجتماعي للأفراد في المجتمع، و الحفاظ على توازنه واستمراره، و قد طمحت هذه المقاربة إلى « تأسيس أخلاق علمانية بعيدة عن كل تأثير ميتولوجي يبدو أنه كان عصرئذ مهيمنا على التصورات و الممارسات الأخلاقية للناس ... و قد أدرك دوركاييم أن التربية هي أسس هذه الأخلاق الاجتماعية ... إن التربية الأخلاقية إذن تصبح في هذا التصور دعامة روحية للبناء الاجتماعي»<sup>2</sup>.

الأخلاق التي يبني عليها النظام التربوي في المنظور الدوركاييمية ليست هي الأخلاق ذات المرجعية الدينية، و لكنها أخلاق جديدة ذات مرجعية عقلانية و علمية تقوم على احترام كرامة الإنسانية. و العدالة الاجتماعية بمعنى احترام إنسانية الإنسان و حقوقه و المساواة في الحظوظ و الاستحقاق.

و تتشكل هذه الأخلاق أساسا من ثلاثة عناصر تعتبر قاعدة التربية الأخلاقية و

هي :

- روح الانضباط.
- الانتماء إلى الجماعة.
- استقلالية الإرادة.

<sup>2</sup> مصطفى محسن :مرجع سابق ،ص 47 .

لذلك فإن التربية الأخلاقية هي أساس التربية الحقيقية لأنها الضامن الوحيد لحماية الروابط الاجتماعية و الوجود الاجتماعي المشترك، لأن الإنسان حسب دوركايم أناني بطبعه، و هي فكرة مناقضة لطبيعة الإنسان الخيرة عند روسو، لذلك يجب تجاوز الحالة الغريزية إلى الحالة الاجتماعية و هو ما تقوم به التربية و التنشئة الاجتماعية.

## وظيفة التربية:

انطلق دوركايم في دراسته للنظام التعليمي من تحليل البعد الوظيفي لهذا النظام و قد عبر نموذج التحليل الذي قدمه عن انشغاله بالوظيفة التي تقوم بها التربية في المجتمع.

هذا ما جعل اهتمامه ينصب على تحليل وظيفة التربية المدرسية دون باقي الأشكال التربوية الأخرى الموجودة في المجتمع.

قبل ذلك نشير إلى أنه اعتبر الظاهرة التربوية ظاهرة اجتماعية لها وجود واقعي موضوعي كما سبقت الإشارة إليه و قد عرفها بوصفها « فعل اجتماعي يتم و يمارس في مجتمع محدد و في لحظة تاريخية معطاة، وفق الأهداف العامة التي وضعها كل مجتمع لنفسه كمشاريع يضع على عاتقه مهمة تحقيقها»<sup>(1)</sup> كما أنها مستقلة عن وعي الأفراد بمعنى أنها ليست فردية.

أما موضوعيا فالتربية هي « الفعل الذي تمارسه الأجيال الراشدة على الأجيال التي لم ترشد بعد من أجل الحياة الاجتماعية، و هي تعمل على خلق مجموعة من الحالات الجسدية و العقلية و الأخلاقية عند الطفل و تنميتها، و هي الحالات التي يتطلبها المجتمع بوصفها كلا متكامل و التي يقتضها الوسط الاجتماعي الخاص الذي يعيش فيه الطفل»<sup>(2)</sup> هذا التعريف يجعلنا نفترض وجود قبلي للمجتمع، و بالتالي للقيم و المعايير التي تتطلبها الحياة الاجتماعية، و التي هي مغروسة في الجيل الراشد الذي توكل إليه مهمة إعادة إنتاجها بما يتوافق متطلبات هذا المجتمع.

لذلك يقوم النظام التربوي بوظيفة "التنشئة الاجتماعية المنهجية للأطفال"<sup>(3)</sup> بمعنى بناء الذات الاجتماعية في الذات الفردية، و تحويل الكائن البيولوجي إلى كائن

(1) مصطفى محسن : مرجع سابق، ص 46.

(2) Emile Durkheim: Op.Cit, p. 15.

(3) Ibid, p. 16.

اجتماعي عن طريق غرس القيم و المعايير و المشاعر و المعارف المشتركة في الأطفال، لكن هذه العملية ليست في حد ذاتها غاية النظام التربوي « فوظيفة العملية التربوية ليست تأمين تطور الفرد، و جعله كائن اجتماعي، و لكن الأهم من ذلك هو تأمين بقاء المجتمع و استمرار شروط وجوده»<sup>(1)</sup>، و بالتالي تصبح عملية تأمين الانسجام الاجتماعي و ضبط السلوكيات الفردية للحفاظ على النظام الاجتماعي.

لكن كيف يمكن للتربية أن تحقق الانسجام و التضامن الاجتماعيين في المجتمع الرأسمالي الناشئ الذي يتميز بالارتفاع المستمر لحجم السكان و للكثافة الاجتماعية بمعنى زيادة العلاقات الاجتماعية و بالتالي كثافة التبادلات الاجتماعية، و بالتخصص في الأدوار و الوظائف التي أنتجها تقسيم العمل الذي ساهم في إنتاج الفر دانية، كيف يمكن أن تستجيب المدرسة لحاجة تحقيق التضامن في ظل معطيات التطور هذه، و كيف يمكن للأفراد أن يحققوا شرط الإجماع و الانسجام - بدل الصراع - اللذان يؤديان إلى الوجود الاجتماعي المتكامل، هذه هي الأسئلة التي انشغل دوركايم بالإجابة عليها.

لذلك رأى أنه لا بد أن تقوم المدرسة بـ « توحيد و تمييز الأجيال الجديدة تبعاً لمتطلبات التضامن العضوي، و من المهم أن تتكيف مع الظروف المتغيرة حتى تتمكن من أداء دورها بمعنى الحفاظ على الاندماج و التطور»<sup>(2)</sup> و أن تقاوم التوترات الاجتماعية. إذن على التربية أن تقوم بتلقين قيم مشتركة تتعلق أساساً بروح الانضباط، و الارتباط بالوطن ... و في نفس الوقت تقوم بالتحضير للمهن، إذ يتلقى الأطفال في مرحلة أولى أساساً موحداً و مشتركاً من الأخلاق و المعارف و المبادئ، لكن في مرحلة متقدمة يختلف و يتميز ما يقدم لهم حسب المهن و الوظائف التي يمارسونها، و من هنا لا تصبح الفر دانية خطر على تضامن المجتمع.

و قد حدد دوركايم في فصل "التربية طبيعتها ودورها" من كتاب "Education et sociologie" أن « لكل مجتمع في الواقع، و في لحظة من مستويات تطوره

*Jean Claude Filloux: Durkheim et l'éducation, PUF, Paris, 1994, p. 22. (1)*

*Jean Pierre Durand, Robert Weil: Sociologie contemporaine, Ed. Vigot, Paris, 1997, p.583. (2)*

نظام تربوي يفرض نفسه على الأفراد»<sup>(1)</sup>، و أن كل مجتمع ينتج نموذج مثالي للإنسان يسعى إلى تحقيقه، هذا النموذج يرتبط بتطور النظام التربوي في حد ذاته و هو « مرهون بتطور الدين و الأنظمة السياسية، و بدرجة تطور العلوم و تطور الصناعة»<sup>(2)</sup>.

أخيرا نقول إن دوركايم قد قدم عبر مشروعه المعرفي خدمة للمجتمع الفرنسي و للجمهورية الثالثة التي عاش في كنفها و آمن بمبادئها، فقد حاول عبر النموذج النظري الذي فسر به الظاهرة التربوية من خلال البعد الوظيفي احتواء الأزمة الاجتماعية التي عاشها المجتمع الفرنسي آنذاك من جهة، و مساعدة فرنسا على تجاوز هذه الأزمة عن طريق التربية و التنشئة الاجتماعية التي تقوم على الأخلاق و تؤدي إلى الوحدة و التضامن، و تأسيس النظام الاجتماعي.

« و مع أنه يتبين من خلال أعمال دوركايم أنه كان يبحث بجدية عن بناء تصور سوسيولوجي عملي بديل للظاهرة التربوية ينأى عن التصورات الفلسفية المثالية لمن سبقه من المفكرين و المرين، فقد ظل هو نفسه، و إلى حد ما مرتبطا في مشروعه بإطار قيمي معياري أخلاقي»<sup>(3)</sup> إذ لم تُعفه الوضعية و العلمية التي نادى بها و بنى عليها مشروعه السوسيولوجي العام عن النظرة الإصلاحية المحافظة.

(1) إميل دوركايم : التربية و المجتمع، ترجمة اسعد وطفة، مرجع سابق، ص

(2) Ibid, p. 12.

(3) مصطفى محسن : مرجع سابق، ص 47.